الأخلاق النيقوماخية

لأرسطو ..

بقلم الدكتورة أميرة حلمى مطر

(أ) أرسطو حياته ومؤلفاته

ليس بعجيب أن يظل اسم أرسطو على مر العصور علما للفلسفة ذلك أنه الفيلسوف الذى بلغ بالفكر اليونانى أعلى قمة من قممه وأحاطت مؤلفاته بشتى مجالات المعرفة الانسانية ووضع مناهج البحث فى العلوم المختلفة فكان بحق المعلم الأول ، تتلمذت عليه الحضارات المتعاقبة واستضاءت بنظرياته العصور على مدى يزيد على العشرين قرنا .

وتتلخص أهم ملامح حياته فى أنه قد عاصر فترة من أخطر فترات التاريخ الانسانى ، ذلك أنه معلم الاسكندر الأكبر وربيب بلاط مقدونيا التى ألقت الأقدار عليها مهمة توجيه مصير بلاد اليونان بل ممالك الشرق القديم بأسرها ابان القرن الرابع ق.م.

وقد ولد بمدينة «أسطاغيرا» الواقعة بمقاطعة مقدونيا بشمال اليونان عام ٣٨٤ ق.م وكان أبوه «نيقوماخوس» طبيبا للملك أمينتاس ملك مقدونيا وجد الاسكندر الأكبر ، وقدم أرسطو الى أثينا فى سن السابعة عشرة من عمره والتحق بأكاديمية أفلاطون ، فكان خير تلميذ للمدرسة وقراءها .

وبعد وفاة أفلاطون عام ٣٤٨ ق.م. قصد آسيا الصغرى حيث أقام ببلاط زميله فى الأكاديمية هرمياس حاكم مدينة اترنوس ،وتزوج من ابنة أخيه وأنجب ابنة سماها بثياس تذكارا لاسم أمها ، ثم تزوج من بعد ذلك من هربيليس التى أنجبت له ابنه نيقوماخوس الذى نسب اليه كتاب الأخلاق النيقوماخية .

وفى عام ٣٤٢ ق.م دعاه فيليب المقدونى ليشرف على تربية ابنه الاسكندر ، فلازم أرسطو الاسكندر حتى اعتلى عرش مقدونيا ، وفى ظل حكم الاسكندر أسس بأثينا مدرسته التى سميت «باللقيون Lyceiem » فى معبد أبوللون لوكايوس ، ويقال ان الاسكندر وهبه

منحة تقدر بثمانمائة تالنت(١) لتأسيس متحف للأحياء التى يجرى عليها تجاربه وكان يبعث اليه بكل ما كان يطلبه من أنواع الحيوان النادرة وغرائب المخلوقات .وكان من عادته أن يتمشى أثناء القائه دروسه ومن هذه العادة سميت مدرسته بالمدرسة المشائية . وكانت محاضراته على نوعين صباحية لعامة المثقفين وتكون الخطابة معظمها وقد عرفت مؤلفاته الخاصة بهذه الدروس بالمؤلفات المنشورة «extoériques» أما النوع الآخر فهو المحاضرات المسائية التى يوجهها للطلاب المتخصصين وهى التى تكون المؤلفات التى سميت بالمؤلفات المستورة «acromatiques, ésotériques» وبعد موت الاسكندر تعرض أرسطو لموجة من سخط الأثينيين اضطر ازاءها الى الاعتزال فى مدينة خالقيس حتى لا يهىء للأثينيين فرصة الجناية فى حق الفلسفة (١) مرة أخرى ومات بعد ذلك بسنة واحدة عام ٣٢٥ ق.م بعد أن ترك رئاسة اللقيون لتلميذه ثاوفراسطس .

ولا يتسع المقام لكى نسرد ملخصا لمؤلفات أرسطو وانما يكفى لكى نقدر موهبته الفذة أن نذكر أن القدماء قد نسبوا له ما يزيد على أربعمائة المؤلف لم يبق منها أكثر من سبعة وأربعين مؤلفا كاملا عدا شذرات تبلغ المئات وقد كتب أرسطو رسائل ومحاورات على غرار أسلوب أفلاطون وصفها شيشرون بأنها تسيل كأنهار الذهب لكن لم يبق منها شىء ومعظم ما بقى من مؤلفاته يتلخص فى محاضراته التعلمية ويدور بعضها حول الفلسفة النظرية التى تشتمل على علمى الطبيعة وما بعد الطبيعة وبعضها يدور حول الفلسفة العملية التى تشمل الأخلاق والسياسة وبعضها يتناول فيه الشعر والخطابة ثم مؤلفاته فى المنطق .

وقد نسب لأرسطو أربعة مؤلفات فى الأخلاق ، هى الأخلاق النيقوماخية والاخلاق الأوديمية والاخلاق الكبرى وبحث صغير عن الفضائل والرذائل . ولما كان من المؤكد أن الأخلاق النيقوماخية صحيحة النسبة لأرسطو كما أنها أهم المؤلفات جميعا ـ لأن باقى المؤلفات اما ترديد لما ورد فيها أو تلخيص أو مسودات لها ـ لذلك تعد الأخلاق النيقوماخية المرجع الأساسى الذى تستمد منه فلسفة أرسطو فى الأخلاق ، ولنبدأ بمقدمة عامة عن فلسفة أرسطو الأخلاقية .

ب ـ مقدمة عامة لفلسفة الأخلاق عند أرسطو:

كان لليونان كغيرهم من شعوب العالم حكمتهم الأخلاقية النابعة من تقاليدهم وتعاليم حكمائهم وخبرتهم بالحياة وبالنفس البشرية ، وترجع أقدم هذه الحكم الأخلاقية الى «هيزيود» الذى ضمن قصيدته « الأعمال والأيام » الكثير من هذه الحكم والأمثال ومنهم أيضا « فيثاغورس » و « ثيوجنيس » و « سيمونيدس » . لكن بالاضافة الى هذه الأخلاق العملية كانت هناك محاولات فكرية لتأسيس الفلسفة الأخلاقية وذلك عند الفلاسفة اليونان ، وكان مدار أبحاث هؤلاء الفلاسفة هو تحديد الغاية القصوى من الحياة أو ماسموه بالخير الأقصى : «Le souverain bien»

---

(١) التالنت عملة نقدية يونانية يقول ابن النديم انها تساوى مائة وخمسة وعشرين رطلا من الفضة .

(١) يقصد بالجناية الاولى فى حق الفلسفة اعدام الاثينيين لسقراط عام ٣٩٩ ق.م .

وابتداء من هذا الخير الأقصى كانوا يستمدون القواعد الأخلاقية كنتائج مترتبة عليه وسمى هذ الجانب من الفلسفة بالأخلاق الفلسفية أو الأخلاق النظرية يقول شيشرون بهذا الصدد :

«ان كل ما يتعلق بالواجبات يتلخص فى نوعين من الأبحاث ، النوع الأول يدور حول معرفة الخير الأقصى والنوع الآخر يدور حول معرفة التعاليم التى ينبغى الالتزام بها فى الحياة العملية » (١) وكان سقراط على حد قول شيشرون هوأول من أنزل الفلسفة من السماء الى الأرض فأدخلها منازل الناس وجعلهامرشدة لسلوكهم وأفعالهم . لكن ذلك الفيلسوف الذى يعد أول من طرق باب البحث فى الفلسفة الأخلاقية لم يكتب شيئا وانما ضرب أروع الأمثلة للأخلاق الحميدة فى حياته وظروف موته ويقال انه أظهر شجاعة نادرة وانقذ تلميذيه « كسينوفون » و « القبيادس » من الموت فى المعارك الحربية وأنه كان يحض الناس على مراعاة صلات الرحم والقربى وتقديس القوانين .

غير أن سقراط لم يكن الا ثمرة عصره ، عصر الديمقراطية الأثينية التى أثارت فى مجال السياسة والأخلاق ثورة عارمة كان قادتها وأبطالها طائفة من معلمى الخطابة والجدل هم « السوفسطائيون » الذين عنوا بالبحث فى مصادر القانون ، فأكد بعضهم أن أصل القوانين يرجع الى العرف والمواضعات الأنسانية فى حين أكد بعضهم الآخر أهميته الطبيعية . وجاءت فلسفة أفلاطون بعد ذلك فتبلورت المشكلة الأخلاقية بشكل أوضح . اذ استوعب أفلاطون نظريات استاذه سقراط ولكنه اضاف اليها الكثير حين تعمق فى بحث النفس الانسانية وفضائلها وحدد غاية الفيلسوف فى حياة التأمل والطهارة الروحية وكشف عن شروط بلوغ هذه الغاية . لكن كل هذه الأبحاث جميعا لم تكن سوى نظريات مفككة لم تؤد الى فلسفة متسقة حتى جاء أرسطو فأمسك بخيوطها المشتبكة ليخرج منها فى النهاية نسيجا متماسك الأركان قوى البنيان .

وقد أحاط أرسطو بأهم مشكلات الفلسفة الأخلاقية فناقش معنى السعادة والفضيلة واللذة والتزم فى بحثه لها بمنهج المشاهدة وملاحظة الواقع وتحليله ولم يسترسل فى النظريات المثالية كما لم يهوم فى عالم المعقولات على نحو ما سار سلفاه سقراط وأفلاطون من قبل. ويكفى لكى يتضح لنا هذا المنهج أن نرجع الى أول صفحات كتابه فى الأخلاق النيقوماخية لنتبين كيف أن منهجه فى الأخلاق لم يكن يختلف عن منهجه فى دراسة علم الحياة أو الطبيعيات فدراسته للسلوك الانسانى ليست مجرد دراسة لما ينبغى أن يكون بل دراسة للسلوك الانسانى كما هو فى الحياة الواقعية وتوضيح للظروف المحيطة بهذا السلوك وبدوافعه وغاياته وقد حاول أرسطو أن يصل من هذه الملاحظات الى وصف الطبيعة الانسانية فى صورها المختلفة لكى يبين الصورة السوية منها ويقارنها بالصور غير السوية وقد انتهى من ذلك الى أن كمال هذه الطبيعة هو الغاية التى ينشدها الانسان ذلك لأن الأمر فى النوع البشرى لا يختلف على

(١) شيشرون : من الواجبات ، الباب الأول الفصل الأول ف ٣ .

الاطلاق عن أمرأى نوع آخر من أنواع الكائنات الطبيعية التى تسعى جميعا الى تحقيق الصورة الكاملة للنوع والتى هى غاية أفراده ، وبغير هذا الكمال الانسانى لا تتم السعادة ولا تتحقق للانسان .

وعلى ضوء هذا التفسير مضى يحدد للانسان ما فى طاقته من قدرات وما فى حوزته من امكانيات تؤهله للقيام بأعظم أعمال البطولة والتحلى بأجمل المزايا الأخلاقية والعقلية وجعل له مكانه الطبيعى بين سائر الكائنات اذ أنزله منزلة وسطى فلم يرتفع به الى مصاف الآلهة ولم يحط من شأنه الى درك الحيوان ونجح فى النهاية فى أن يقدم صورة لأخلاق المواطن اليونانى الحر الذى ينعم بامتيازات السادة من أهل زمانه والذى لا يصل الى قداسة القديسين ولا الى زهد الفلاسفة الرواقيين والى هذا المواطن وجه أرسطو كلامه فى الأخلاق النيقوماخية وأشاد بامتيازه .

غير أن أرسطو ما لبث أن جاء بنظرية مختلفة فى روحها العامة حين انتهى فى خاتمة مؤلفه فى الأخلاق النيقوماخية الى اظهار ثقته بالطبيعة الانسانية الى حد الارتفاع بها الى مستوى الحياة العقلية التى تصدر عنها ألوهية الآلهة وسعادتهم وخلودهم . وبعد أن انتهى من مخاطبة الانسان بوصفه كائنا مكونا من نفس وجسم عاد يخاطبه بوصفه كائنا عاقلا فلم يعد هنا بصدد المواطن الصالح فحسب بل بصدد الفيلسوف المتعقل المجرد من كل علاقات الجسد وغرائزه . ولا يبلغ الانسان هذا المستوى الا اذا التزم بحياة التأمل العقلى وشارك فى العنصر الالهى . وفى هذه النقطة بالذات تكشف الأخلاق عن أرسطو عن ذلك التردد الذى يسود فلسفته بأسرها ، ترددبين الواقعية والمثالية بين النظرة الى الانسان بوصفه كائنا طبيعيا مركبا من المادة والروح وبين النظرة اليه بوصفه عقلا مجردا وروحا خالدة . ونتيجة لذلك يعود الى القول بأن سعادة الانسان الفاضل ليست كافية فى حد ذاتها وانما هى مقدمة لسعادة أخرى أسمى منها هى سعادة الفيلسوف المنصرف الى حياة الفكر والتأمل وأن الفضيلة العليا التى يتوج بها كافة الفضائل الأخرى هى فضيلة التأمل العقلى .

ولسنا الآن بصدد حل هذه المشكلة التى حيرت قدماء الشراح ومحدثيهم وانما يكفى أن نقول مع روديبه (١) ان تردد أرسطو فى فلسفته الأخلاقية بين سعادة المواطن الفاضل وسعادة الفيلسوف المفكر المتأله انما يرجع الى موقفه المتردد من مشكلة العقل على العموم . فقد ذهب أرسطو فى تفسيره لعملية التعقل مذهبين مختلفين ، ففسرها تارة بواسطة اشتراك النفس مع الجسم على السواء ورأى أن عملية التعقل عملية لا تتم بغير مشاركة قوى النفس الأخرى مثل الاحساس والذاكرة والتخيل (٢) وفسرها تارة أخرى بأنها عملية لا تخص الا العقل المجرد عن باقى قوى النفس الأخرى وهو يختلف فى طبيعته عنها كما أنه يأتى الانسان من الخارج وله وحده الخلود (٣) وليس من معنى ذلك أن أرسطو لم يكن على وعى كاف بهذه المشكلة بل

(١) G. Rodier, Etudes de Philosophie Grecque. Paris 1926 p. 216.

(٢) فى الحس والمحسوس الباب السادس ٤٤٥ ب ١٦ وفى النفس الباب الأول فصل ١ ـ ٤٣٠ أ ٧

(٣) فى نفس الباب الثانى فصل ٢ ـ ٤١٣ ب ٢٥ والباب الثالث فصل ٥ ـ ٤٣٠ أ ٢٠

يبدو أنه لم يصل فيها الى حل واضح اذ يقول : « أما عن العقل والقوة النظرية فان الأمر لا يبدو واضحا بعد . » (١)

ولكن الذى يؤكده فى ختام مؤلفه فى الأخلاق النيقوماخية أن العقل هو العنصر الالهى فى الانسان والذى به يتم الخلود (٢) على أنه كان مع ذلك يونانيا الى حد لم يسمح له بأن يحقر من القيم الدنيوية الأخرى من قوة وصحة وجمال ولذلك فقد جاءت فلسفته الأخلاقية فى النهاية فى ثوب من الاعتدال والتوسط المميز لفلسفته كلها على العموم .

جـ ـ كتاب الأخلاق النيقوماخية

لعل أول ما يتبادر الى ذهن القارىء هو أن يسأل لم يرتبط كتاب الأخلاق باسم نيقوماخوس ؟ وقد قيل فى الاجابة عن هذا السؤال أن أرسطو قد اهدى الكتاب الى ابنه نيقوماخوس . لكن انتهى البحث فى هذا الموضوع الى استبعاد هذا الرأى لأننا لا نجد فى كتاب الأخلاق النيقوماخية أى عبارة تشير الى هذا الاهداء . وبالاضافة الى ذلك تزداد صعوبة قبول هذا الرأى اذا ما لاحظنا تلك العبارة التى ترد فى بداية هذا الكتاب والتى يقول فيها أرسطو ، ان الشباب مستمع سيىء لمثل هذه الأبحاث التى تتناول العلوم الانسانية (٣)

لذلك فان الأرجح بهذا الصدد هو أن نيقوماخوس بن أرسطو قد عنى بتصحيح ونشر هذا الكتاب الذى ثبتت صحة نسبته لأبيه . ويكفى لكى تتبين ذلك أن ننظر الى أسلوب كتابة هذا المؤلف فنلاحظ أن فيه محاولة مستمرة لتصحيح النص هذا فضلا عن الجمل الاعتراضية التى غايتها الربط بين الأجزاء المختلفة والفصول المتتابعة من الكتاب وهى الخصائص التى تتميز بها المؤلفات التى تركها أرسطو ناقصة وتناولها التهذيب بعد ذلك مثل كتب الميتافيزيقا والسياسة والخطابة ولا تظهر هذه الخصائص فى المؤلفات التى أتمها أرسطو بنفسه كمؤلفاته فى المنطق والنفس والسماء . ولقد عنى بالتعليق على هذا الكتاب من القدماء أسبازيوس واوستراتوس واندرونيقوس .

أما عن محتوى كتاب الأخلاق النيقوماخية فينقسم الى عشرة كتب أو أبواب أولها يبحث فى الخير الأقصى والسعادة والباب الثانى فى الفضيلة والثالث يبحث فى الشجاعة والاعتدال والرابع يعرض للفضائل الأخرى ويدور الخامس حول العدالة والسادس فى الفضائل العقلية والسابع يدرس الافراط واللذة والثامن والتاسع فى الصداقة أما العاشر فيعود فيه الى البحث فى اللذة والسعادة الحقة التى تعود علينا من حياة التأمل .

ويمكن أن نعرض ما انتهى اليه أرسطو فى هذه الأبواب من قضايا ونظريات فلسفية تحت ثلاثة نقاط رئيسية هى :

أولا ، نظريته فى الخير الأقصى والسعادة.

ثانيا ، نظريته فى الفضيلة والفضائل المختلفة .

ثالثا ، رأيه فى اللذة والسعادة الحقة .

---

(١) فى نفس الباب الثانى فصل ٢ ـ ٤١٣ ب ٢٤ .

(٢) الأخلاق النيقوماخية الجانب العاشر ، فصل ٧ ـ ١١٧٧ أ ١٦

(٣) الأخلاق النيقوماخية الباب الأول فصل ١ ، ١٠٩٥ أ ٢ .

أولا : الخير الأقصى والسعادة

ليس هناك من عمل أو من علم الا وكانت غايته تحقيق خير ما فالخير هو دائما غاية أفعال الانسان جميعها . لكن بما أن الغايات والخيرات تتسلسل وتترتب درجات بعضها يعلو على الآخر فلابد من افتراض خير أسمى هو الغاية القصوى التى تتجه اليها جميع أفعالنا وليس هذا الخير الأقصى شيئا آخر الا السعادة «Eudxcuovia» «eudaimonia»

فالسعادة هى الغاية القصوى التى يسعى اليها ويهدف الى الحصول عليها الناس جميعا سواء منهم العامة أو الخاصة . غير أننا اذا ما شرعنا فى معرفة حقيقة السعادة فاننا سرعان ما نختلف فيما بيننا ، فالبعض يراها فى اللذة والبعض يراها فى المجد والشرف والآخرون يوحدون بينها وبين الثراء والغنى . بل ان الفرد الواحد يختلف حكمه عليها من وقت الى آخر بحسب اختلاف ظروف حياته فالمريض مثلا يتصورها فى الصحة والفقير يراها فى الغنى ، وعلى العموم فان الناس يتصورونها بحسب نوع الحياة التى يحيونها . والحياة الانسانية لاتخرج عن أحد هذه الأنواع الثلاثة ، لأنها اما أن تتجه الى طلب اللذات أو الى طلب المجد السياسى أو تتجه الى التأمل والفكر وهذه أرقى أنواع الحياة .

أما أن نقول مع أفلاطون بأن الخير هو من بين الحقائق العقلية الخالدة التى يسميها بالمثل فان الالتزام بهذا التفسير لن يؤدى الا الى نتائج غامضة مبهمة ، اذ لن نعرف ما فائدة هذا الخير وما علاقته بنا وما الذى نستفيده من وجوده أو من عدم وجوده ان الخير الذى نبحث عنه هو الخير الذى يناسب طبيعتنا الانسانية وهو الخير الذى نبحث عنه لذاته لا من أجل خير آخر فلو قلنا مثلا ان الغنى خير أو المجد والشرف خير فليس ذلك لأن الغنى والمجد فى حد ذاتهما خير بل لأنهما وسيلتنا الى تحقيق السعادة. فالسعادة هى وحدها ما نرغب فيه لذاته ولذلك لا ينطبق اسم الخير الأقصى الا عليها .

ولعلنا ننجح فى تفسير السعادة لو حاولنا معرفة حقيقة الانسان اذ أنه من الواضح للجميع أن الخير بالنسبة لأى شيء هو اتقان الوظيفة التى يقوم بها هذا الشيء فالخير للحصان مثلا أن يحسن العدو والخير للجندى أن يحسن القتال وعلى هذا النحو يمكن أن نسأل ما هو الخير المناسب للانسان بوصفه انسانا .

ولكى نجيب على هذا السؤال نقول ان الانسان كائن مركب من جسم ونفس ، ومن الواضح أنه ليس انسانا بما له من وظائف جسمانية أو ظائف مصدرها النفس غير العاقلة كالغذاء والنمو والحركة لأن تلك الوظائف ليست مما يميز الانسان عن غيره من باقى أنواع الحيوان بل بعضها مشترك بينه وبين مملكة النبات ، ولا يبقى من وظيفة تميز الانسان عن غيره سوى وظيفة تلك القوة العاقلة ونشاطها على نحو مطابق للفضيلة . فان جاز أن توجد فضائل متعددة فبحسب أرقى هذه الفضائل وأحسنها .

ولكى تتحقق السعادة ينبغى أن تدوم ممارسة هذا النشاط العقلى الفاضل على مدى الحياة بأسرها ذلك لأنه كما يقول المثل السائر عندليب واحد لا يصنع الربيع لا هو ولا يوم

صحو واحد فلا يمكن أن يقال ان يوم سعادة واحد بل ولا بعض زمن من السعادة يكفى لكى يجعل الانسان سعيدا محظوظا .

وكذلك انتهى أرسطو الى أن السعادة لا يمكن أن تتحقق بغير حياة الفضيلة ، فلا سعادة للشقى مهما كان حظه من خيرات هذه الدنيا وحياة الفضيلة لا تتعارض عنده مع بلوغ السعادة بل هى شرطها الأول والرئيسى، ولكنه رغم ذلك مضى يبحث من جهة أخرى عن أثر الظروف الخارجية على سعادة الانسان. يقول لكى تكون السعادة تامة لا يمكن أن نستغنى عن تلك الخيرات الخارجية اذ أنه من المحال أو على الأقل من الصعب أن يفعل الانسان الخير أو يدرك مستوى الفضيلة الراقية اذا كان مجردا من كل شىء ، فالأصدقاء والثروة والنفوذ السياسى شروط لا غنى عنها لكى يصل الانسان الى الحياة السعيدة .

وبالاضافة الى هذه الشروط هناك من الأسباب الخارجية مايعد معوقا عن بلوغ السعادة مثل الحرمان من شرف المولد والعائلة السعيدة أو الصحة أو الجمال . لذلك فكثيرا ما تلتبس السعادة بحسن الحظ عند البعض كما يحدث أن تلتبس عند البعض الآخر بالفضيلة . والحق أنها ليست فى هذا ولا فى ذاك لأنها هبة من الله ونتيجة لمجهوداتنا معا وهى فى متناولنا الى حد كبير حيث ان الفضيلة مترتبة على ما تستطيع الذات تحقيقه من فضائل . لذلك فالانسان وحده من بين جميع الكائنات هو الجدير بالسعادة لأنه القادر على تحقيق الفضيلة وهذا ما يجعلنا نشعر ازاء سعادة السعداء بالاحترام والتقدير .

وعلى هذا النحو قدم أرسطو مذهبا فى السعادة لا يتطرف فى اتجاه زهد الزاهدين ولا ينكر ما تمليه عليه الروح اليونانية من تمسك بالقيم الدنيوية غير أنه مع ذلك لم يتطرف الى الحد الذى يجعل لهذه الخيرات الدنيوية أثرا يطغى على مجهودات الذات الانسانية . فهو يضيف قائلا ان المصاعب قد لا تكون دائما حائلا للانسان عن بلوغ السعادة بل تشد من عوده وتقويه على الصمود لشدائد الحياة والانسان فى هذه الحياة اشبه بربان عليه أن يحسن قيادة السفينة اذا ما اعترضتها العواصف والأنواء لذلك فان الحديث عن السعادة يسلمنا الى الحديث عن نظرية أرسطو فى الفضيلة .

نصوص مختارة :ـ

(ا) فى أن الغاية التى يسعى اليها الجميع هى السعادة .

يقول : « لقد ذكرنا أن كل معرفة وكل تدبير تتخذه فى حياتنا نقصد به ضرورة خيرا ما. ولنبحث فى ذلك الخير الذى تهدف اليه السياسة الذى هو بالتالى الخير الأسمى الذى تتجه اليه كل أعمالنا . والجميع سواء منهم العامة أو الخاصة يتفقون على أن اسمه السعادة. لكنهم غير متفقين على تفسير واحد للسعادة ، فالبعض يراها فى تلك المظاهر الخارجية كاللذة أو الثروة أو المجد والبعض الآخر يراها فى أشياء أخرى ، بل ان رأى الشخص نفسه يتغير بصدد هذا الموضوع فالمريض مثلا يرى السعادة

فى الصحةوالفقير يراهافى الثروة والمدرك لجهله يراها عند من يحسنون الكلام . وعلى العكس من ذلك يبدو للبعض أنه فوق كل هذهالخيرات النسبية يوجد خير مطلق فى ذاتههو العلةلسائر الخيرات الأخرى فلنبحث فى أصوب هذه الآراء ولننتبه الى الواقع . فطالما كان الوقع واضحا أمامنا فلا حاجة بنا الى البحث عن علته، أما من لا يأبه لا للواقع ولا لعلته فانما ينطبق عليه قول هيزيود :

« الأفضل أن يعلم الانسان بنفسه ما يبتغى معرفته

« ومن الخير أن يتبع رأيا حكيما لغيره

« لكن أن يعدم الانسان القدرة على التفكير بنفسه

« ولا يستمع لرأى الغير . فذلك فعل الأخرق » .

ولنعدالى بحثنا عن السعادة وعندئذ سوف نجد أنالناس بصفة عامة تتصور الخيروالسعادة بحسب نوع الحياة التى يحيونها ، فالعامة وذوو الطبائع الغليظة يرون السعادة فى اللذة ،والحق أنه لا يوجد الا ثلاثة أنواع من الحياة يمكن التمييز بينها . أولها حياة اللذة السابق ذكرها ثم حياة المجد السياسى والفضيلة وأخيرا حياة التأمل .

اما أفلاطون فقد عرف الخير بأنه من تلك الحقائق الخالدة التى سماها « المثل » غير أن نظريته غامضة لأن للخير معانى كثيرة متعددة كما أن للوجود أنواعامتعددة . فالخير بوصفه جوهرا يسمى الله أو العقلوبوصفه كيفا يكون فى الفضائل المختلفة وبوصفه كما يكون فى الحدود المناسبة وهكذا لا يوجد حد واحد عام ينطبق على الخير كذلك يترتب على اختلاف معانى الخير أن لا يوجد علم واحد يدرسه بل علوم متعددة.

ولكن فيما يتعلق بموضوعنا فاننا لا نعنى الا بنوعواحد من أنواع الخير هو ذلك الخير الذى نحبه ونبحث عنه لذاته انه الخير المناسبلنا وليس الخير فى ذاته . وسوف يظهر لنا غموض هذا الخير فى ذاته . لو حاولنا البحث عن الفائدة التى سوف تعود على النساج أو النجار من معرفته بهذا الخير فى ذاته أوماالذى يضيفه تأمل هذا الخيرعلى فن الطبيب أوالقائد. اذ ليس على هذا النحو يبحث الطبيب فى الصحة لأنه لا يعنى الا بصحة الانسان أوبعبارة أدق بصحة مريض معين » (١) .

(ب) السعادة هى الخير الأقصى وهى تشترط الفضيلة .

يقول « لنعد الى البحث عن الخير الذى يبدو مختلفا باختلاف الأفعال والفنون .فالخير فى الطبليس هو الخير فى الحرب ولا هو كذلك فى باقى الفنون . بمعنى آخر لنبحث عن الخير فى كل فن من هذه الفنون أو ما هى الغايةالتى تحققها كل منها . وهنا نجد أن الخير بالنسبة لفن الطب يكون فى الصحة وهو بالنسبة للاستراتيجية النصر وبالنسبة للعمارة فى البناء أو المنزل ولكل فن آخر غاية أخرى . فالخير دائما هو الغاية من كل سلوك فيه تعقل وتدبير

(١) الأخلاق النيقوماخية الباب الأول فصل ٤ ، ٥

اذ من أجله يفعل الانسان ما يفعل ... واذا كان هناك خير أقصى أو خير مطلق فيتعين أن يكون هذا الخير كاملا وأن يبتغى لذاته واذا كان هناك أكثر من خير واحد فسوف يكون الخيرالأقصى أكملها جميعا .

والخير الذى نبحث فيهلذاته أكمل مما نبحثفيه لأجل شيء آخر غيرهأى أن الخير الأقصى والمطلق هو الذى نفضله لذاته لا من أجل شيء آخر . وفى هذه الحال تكون السعادة هى الخير الأقصى لأننا نرغبفيها لذاتها فىحين أن المجد والغنى والفضيلة لا نرغب فيها لذاتها بلمن أجل السعادة أى لأننا نظن أننا نبلغ بفضلها السعادة ، وبالعكس لا يوجد منيجعل السعادة وسيلة من وسائل هذه الامتيازات . لكن اذا اتفقنا على أنالسعادة هى أكثرالأشياء قيمة فسوف ينبغى أن نعرف بوضوح ما هى السعادة . ولن نحصل على هذه المعرفة ما لم نعرف ما هى الوظيفة اللائقة بالانسان اذ يبدو أن هناك خيرا يليق بالانسان كما يكون للموسيقى أو المثال خير يناسبه . الا توجد أفعال خاصة بكل من الاسكافى والنجار ؟ ألا يوجد بالمثل ما هو خاص بالانسان ؟ أم هل جعلت منه الطبيعة مخلوقا جامدا غير قادر على انتاج أى شيء ؟ أليس الأولى أن نقول انه كما يكون للعين واليد والرجل ولكل عضو من أعضائنا وظيفة خاصة به يكون للانسان أيضا وظيفة تناسبه ؟ فما هذه الوظيفة اذن ؟ هل تكون حياته شيئا مشتركا بينهوبين ما نراه فى عالم النبات من وظائف الغذاء والنمو أم هل تكون حياته شيئا مشتركا بينه وبين الحيوان ؟ بالطبع لا يبقى له من قدرة مميزة الا السلوك بحسب العقل .... فاذا قام الانسان بنشاط مطابقللعقل السليم واذا اضفنا أنه عمل الانسان الفاضل كما نصف عمل الموسيقار بأنه عمل الموسيقار الماهر فسوف يترتب على ذلك ان الخير بالنسبة للانسان هو فى ذلك النشاط الصادر عن العقل الموجه الى الفضيلة أو الى أكمل الفضائل على مدى الحياة لأنه كما يقول المثل عندليب واحد لا يدل على الربيع لا هو ولا يومصحو واحد ، فلا يمكنأن يقال ان يوم سعادة واحد يكفى ليجعل الانسان سعيدا محظوظا » (١)

ثانيا : نظرية الفضيلة والفضائل المختلفة.

ما هى الفضيلة ؟ هل هى انفعال «pathos». passion أم هى قوة طبيعية dunamis — puissance أم هى عادة مكتسبة Hexis — habitude ؟ اذ أن هذه هى أحوال النفس ولابد أن تكون الفضيلة أحد هذه الأحوال الثلاثة . ويستبعد أرسطوأن تكون الفضيلة من باب الانفعالات ، فمنأمثلة الانفعالات التى يذكرها الشهوة والغضب والخوف والجرأة والفرح والمحبة والكراهية وكل تلك الاحساسات المرتبطة باللذة والألم . ويقصد بالقوة الاستعداد الطبيعى للاحساس بهذه الانفعالات السابق ذكرها أما العادات فهى الاستعداد الاخلاقى سواء أكان طيبا أم خبيثا الذى نلتزم به عندما تتأثر بهذه الانفعالات . فقد يكون موقفنا الأخلاقى مثلا بالنسبة لاحساس الغضب أن نحسه بشدة أكثر مما

---

(١) الاخلاق النيقوماخية الباب الاول فصل ٧ .

ينبغى أو بليونة أكثر مما ينبغى فيكون هـذا الاستعداد على الحالين خبيثا أما اذا احسسناه على نحو معتدل فيكون ذلك استعدادا أوعادة طيبة وعلى هذا النحو يكون الحـال فى باقى الانفعالات .

وبناء على ذلك لا تكون الفضائل والرذائل انفعالات لأننا لا نسمى الناس أفاضل ولاأراذل لانفعالاتهم فلا نمتدح أو نذم أحدا لأنه يخاف أو يغضب أو يفرح أضـف الى ذلك أن عنصر الارادة والاختيار لا يتدخلان فى حدوث هذه الانفعالات . كذلك لا يمكن أن تكونالفضائل قوى طبيعية لأننا لا نمتدح احدا لما عنـده من استعداد طبيعى للغضب أو الخوف . فلا يبقى أخيرا سوى الاحتمال الثالث وهو أن الفضائل عادات مكتسبة لأن الفضيلة لا توجد فينـا بالطبيعة . ومن جهة أخرى فان العادة لا يمكن بأىحال من الأحوال أن تخالف الطبيعـة والا لأمكن للحجارة مثلا أن تتجه الى أعلى بدلا من أن تتجه الىأسفل اذا كررنا عملية قذفهـا الى أعلى مرات عـديدة . لذلك ينبغى أن نراعى قوانين الطبيعة عند تكوين العادات الفاضلة . واكتساب العادة يقتضى منا تكرار العمل فبلعب القيثارة مثلا نصبحموسيقيين وبممارسة الأفعال العادلة نصبح عادلين ونكتسب عادة العدالة .

ويؤكد أرسطو ضرورة العناية بتعـويد الأطفال الأخلاق الحميدة منذ نعومة أظفـارهم حتى يشبوا عليها وتكون لهمعادات يلتـزمون بها فى سلوكهم .

وينبغى لكى نعرفما هى الفضيلة أن نبدأ بالتفرقة بين الفعل الارادى والفعـل اللاارادى فالفعل اللاارادى هـو الفعل الذى نفعله بدافع القهر أو الجهل ويكون الدافع فيهخارج الفاعل، أما الفعل الارادى فيعرف بأن الدافع فيه باطن صادر من الفاعل ذاته وبمعرفته الكاملة . لكن هذا التعريف للفعل الارادى ليس تعريفا دقيقـا اذ أنه من الملاحظ فى فلسفة أرسطو الطبيعيـة أن كل حركة الكائنات الطبيعية حركة مصدرها دائما مبدأ باطن تتميزبه هذه الكائنات الطبيعية من حركات أو من أفعال سوفتتصف بأنهـا أفعال ارادية . (١)

لذلك يضيف أرسطو لأفعال الفضيلةعنصرا آخر بالاضافة الى الارادة هو عنصر الاختيـار ويعـرف الاختيـار بأنه ينتـج عن التـدبر والروية proairesis (٢) وأسـاس التمييـز عنـده بين الارادة والاختيـار يتلخص فى أن الارادة تتعلق بغاية معينـة أما الاختيار فيقع على الوسـائل التى تؤدى الى تحقيق هذه الغاية . فنحن نريد الصحة مثـلا ولـكننا نختـار وسـائل تحقيقهـا ، ونحن نريد السعادة لا نختارها بل نختار ما يقـع فى مقدورنا من أعمال يمكن أن تحققها لنا . وعلى العموم فان فعل الاختيار لابد أن يقع فىحدود الأشياء الممكنة أى التى يمكن لنا أن نفعلهـا أو لا نفعلها أما ما يحدث بالضرورة كحـركة الكواكب مثلا أو بفعلالمصادفة أو الحظ فليس مما يقع فى دائرة اختيارنا .

---

(١) الكائنات الطبيعية عند ارسطو هى العناصر الاربعة ومركباتها والاجرام السماوية وكل ما يتحرك بفعل «الطبيعة» لان الطبيعة بحسب تعريفه هى مبدأ الحركة والسكون يوجد فى الكائنات الطبيعية مباشرة وبموجب ماهياتها . انظـر كتاب الطبيعة الباب الاول فصل ٩ ـ ١٩٢ ب .

(٢) الاخلاق ٣ ـ ٤ ـ ١١١١ ب

لكن كل الشروط السابق ذكرها ليست سوى شروط شكلية تتعلق بصورة العمل الفاضل ، أما مضمون هذا العمل فيمكن أن نعرفه بانه يتلخص فى اتقان الوظيفة الخاصة بالفاعل... ففضيلة العين مثلا هى فى حدة الابصار وفضيلة الفرس هى فى سرعة العدو والقدرة على المقاتلة فى المعارك .. وبناء على ذلك سوف يكون من الواضح أن الوجه الصحيح للعمل الفاضل يقتضى تجنب الزيادة والنقصان على السواء والتزام الحد الوسط .

ويعرف الوسط فى الكم المتصل بأنه النقطة التى توجد على بعد سواء من كلا الطرفين. وهو يعرف بالنسبة لنا عندما لا يعاب لا بالافراط ولا بالتفريط . ولا يكون هذا الوسط فى أغلب الأحيان واحدا بالنسبة لجميع الناس بل يختلف باختلاف الأفراد وباختلاف ظروفهم وبحسب الأفعال ذاتها . من جهة أخرى يختلف هذا الوسط عن المتوسط الحسابى . ويعرف أرسطو المتوسط الحسابى بقوله لو فرضنا أن أكل عشرة أرطال من الغذاء يكون اكثر مما يلزم وأكل رطلين يكون أقل مما يلزم فان المتوسط الحسابى يكون بأكل ستة أرطال من الغذاء .ويعقب على ذلك بأننا لا نقصد هذا المتوسط الحسابى عند تحديدنا لأفعال الفضيلة فالستة أرطال السابق ذكرها فى المثل السابق قد تكون قليلة بالنسبة لبطل رياضى مثل « ميلو » الذى يقال انه كان يأكل عشرين رطلا من الغذاء كل يوم وهى كثيرة على المبتدىء . لذلك يشترط عند تحديد الوسط فى السلوك الأخلاقى ألا نخلط بينه وبين المتوسط الحسابى وألا نقتصر على النظر الى العمل أو السلوك فى حد ذاته بل ينبغى مراعاة ظروف الفاعل وقدرته . وخلاصة القول أن الأعمال المتقنة فى كل الفنون هى مالا يمكن أن نزيد عليها أو ننقص منها أى شىء . أما تعريف الفضيلة فيتلخص فى أنها عادة تقدير هذا الوسط الذى يناسب طبيعتنا والذى يحدده العقل ويوافق عليه الحكيم . غير أنه اذا جاز تعريف الفضيلة بأنها وسط بين رذيلتين احداهما افراط والأخرى تفريط الا أنها فى حد ذاتها وبالنسبة لصفة الكمال والخير لاتحتمل أى معنى من معانى النقص لأنها قمة وهى مطلقة فكما أن هناك من الأفعال ما هو شر مطلق كالقتل والسرقة يوجد أيضا ما هو خير مطلق كالشجاعة فى حد ذاتها أو الاعتدال أو غيرهما من الفضائل الأخرى .

لكن الوقوف عند حد الحديث عن النظريات العامة لا يكفى ولذلك ينبغى أن نطبق التعريف الذى توصلنا اليه على الفضائل المختلفة .

ويقدم أرسطو قائمة بالفضائل الأخلاقية التى ينطبق عليها ما سبق أن وضحه من شروط ومن أهم الفضائل التى يذكرها فى هذه القائمة فضيلة الشجاعة. وهو يعرفها بأنها وسط بين الجبن والتهور وان كانت أقرب الى طرف التهور منها الى طرف الجبن . وهى تظهر عادة عند الخطر وخاصة أخطار الحروب . ويميز بين مواقف الشجاعة الحقيقية ومواقف الشجاعة المزيفة . ولا يرى فى الانتحار مثلا دليلا على الشجاعة بل يقول ان الانتحار قد يكون سببه الجبن والخوف الشديد وهو جريمة يرتكبها فاعلها فى حق المجتمع فيدين الانتحار كما أدانه أفلاطون من قبل وان كان مصدر اوانة أفلاطون للانتحار يرجع الى أنه يتعارض مع الايمان . ومن الفضائل الأخلاقية التى يدرسها أرسطو

فضيلة الاعتدال التى تقضى بعدم الانسياق وراء الشهوات وكبح جماحها خاصة الشهوات القائمة على حاستى الذوق واللمس ويرى أرسطو فى رذيلة الافراط انحطاطا بالطبيعة الانسانية يدينها من الحياة البهيمية .

ويرى فى الكرم وسطا بين الاسراف والبخل ويعرفه بأنه أقرب الى العطاء منه الى القبول ويذم الاسراف لأنه قد ينتهى بصاحبه الى اتلاف ثروته بيده الأمر الذى قد ينتهى به الى الاستكانة للغير بغرض الأخذ منهم على أن هذه الرذيلة أقل مقتا من البخل الذى قد يحدث اما من عدم العطاء أو الا فراط فى القبول ويذم البخيل لأنه لا يحسن الى نفسه ولا الى أحد كما أن داءه لا يمكن الشفاء منه بعكس الاسراف الذى يمكن التغلب عليه بتعويد المسرف عادات الاقتصاد . وبالاضافة الى هذه الفضائل يذكر أرسطو فضيلة الأريحية والمروءة والحلم . فالاريحية La magnanimité هى

وسط بين البهرجة والجرى وراء المظاهر والحقارة التى تقضى على صاحبها التفريط فى قدر نفسه أما المروءة La magnificence فهى وسط بين الفخر بالباطل وصغر النفس والحلم وسط بين سرعة الغضب وبلادة الشعور.

غير أن أرسطو يعنى عناية خاصة بفضيلتين يخصص لكل منهما ابوابا كاملة من كتابه هما فضيلتى العدالة والصداقة أما العدالة فيصفها بأنها الفضيلة الكاملة بل أكمل الفضائل وأحقها جميعا بالاعجاب ، فما كوكب الصباح ولا نجمة المساء بأجمل منها ولعل مصدر هذا الامتياز يرجع الى أن من يملك هذه الفضيلة لا يمارسها بالنسبة لشخصه بل بالنسبة للغير وآثارها تعود على المجتمع وتؤثر على أفراده ولذلك نجد أن من يتصفون بها هم فى العادة ممن تسند اليهم الأعمال السياسية أو يقومون بمهام تمس أفراد المجتمع ويعرف أرسطو العقل العادل بأنه ما يطابق القانون . وينقسم القانون فى رأيه الى نوعين قانون سياسى وقانون مدنى وجنائى لذلك يوجد نوعان من العدالة فالعدالة التى تطابق النوع الأول من القانون يسميها بالعدالة التوزيعية distributive

لأنها تحدد توزيع الامتيازات والثروة بين المواطنين وهذه العدالة تتعلق بالأشخاص والأشياء على السواء . يقول انه يجب أن يكون توزيع الأشياء بنفس النسبة التى يختلف بها الأشخاص عن بعضهم فى الامتياز ، أما المساواة المطلقة مع اختلاف الأفراد فى الأهلية والامتياز فهو أمر لا يطابق ما تقتضيه العدالة السياسية. اما النوع الثانى من العدالة وهو العدالة التى تطابق القانون المدنى والجنائى فهى العدالة القانونية ويسميها بالعدالة التعويضية corrective de compensation وهى التى تراعى المساواة الحسابية بين أفراد المجتمع وتفرض احترام العقود الارادية وتمنع أفعال الظلم والتحكم فى العقود الجائرة .وتقضى هذه العدالة القانونية بالمساواة التامة بين الأفراد مهما اختلفت مراتبهم اذ لا مفاضلة بين الناس أمام القضاء والمساواة التى تلتزم بها مساواة حسابية فى حين أن المساواة التى تلتزم بها العدالة السياسية أقرب الى النسبة الهندسية . وينـاقش أرسطو رأى من يرون فى القصاص la loi de talion

عدالة ، وينسب هذا الرأى للفيثاغوريين الذين عرفوا العدل بأنه الرد بالمثل ، أى أن يفعل المرء بالغير ما قد انزلوه به من شر .لكن لايرى أرسطو أن القصاص أمر مشروع دائما ويضرب مثلا لذلك بقوله اذا تلقى أحدهم ضربات من القاضى فانه لا ينبغى له الرد عليه بالمثل ، أما اذا اعتدى أحدهم على القاضى فلا يكفى أن ترد له ضربات مماثلة .

ولما كانت العدالة نوعا من الوسط بين الظلم الذى يقع علينا من الغير أو نوقعه نحن على الغير ، فانه يعد الظلم طرفا نقيضا للعدالة وهو يحدث اذا تجاوزت المنفعة التى يحصل عليها المعتدى حد الوسط أو اذا تلقى المعتدى عليه أنقص من هذا الحد ففى الحالة الأولى نأخذ أكثر مما ينبغى لنا وفى الحالة الثانية نأخذ أقل مما ينبغى وهنا تظهر الحاجة الى تدخل القانون لاحقاق الحق وذلك بفرض العقوبة التى تعوض الطرف الخاسر عن خسارته وتقتص من المعتدى ما يعادل خسارة المعتدى عليه .

ويطرق أرسطو بعد ذلك موضوعا كان له طوال العصور الوسطى أهميته البالغة فى الفلسفة السياسية وهو قانون الطبيعة الذى يقضى بنوع آخر من العدالة العليا السامية l'équité التى تعلو على العدالة القانونية . وخلاصة رأيه بهذا الصدد هى أنه عندما يقصر القانون الوضعى عن تحقيق العدالة يمكن الرجوع الى قانون أسمى هو القانون الذى يرضاه ضمير القاضى خاصة فى تلك الحالات التى لا يمكن فيها تطبيق القاعدة العامة . ذلك أنه على الرغم من عدم الاختلاف النوعى بين العدالة الطبيعيةوالعدالة القانونية الا أنه ينبغى ألا يتحول القانون الى قاعدة جامدة متحجرة بل أجدر به أن يشبه القاعدة الرصاصية التى تستخدم فى فن المعمار « بلسبوس » (١) ، فهى تنثنى وتتشكل بحسب الحجر الذى تقيسه وعلى هذا النحو يمكن للرجل العادل أن يحافظ على القانون وأن يستخدمه بالمرونة التى تتطلبها بعض الحالات الخاصة .

ويكتب أرسطو صفحات طويلة (٢) يشرح فيها نظريته فى الصداقة Philia ويبدأ حديثه عن الصداقة بقوله انها الشرط الأساسى لتحقيق أى فضيلة فى صورتهاالسامية، فهى رابطة تجمع الرجال الأحرار المتساوين فى الفضيلة وفى محبة الخير . ويذهب فى مدح الصداقة الى حد تفضيلها على كل الفضائل الأخلاقية الأخرى ويقول انه لو أمكن أنتسود الصداقة بين المواطنين لأغنت عن فضيلة العدالة. ولا يمكن أن نتصور مجتمعا فاضلا بغير أن تكون الصداقة أو ذلك الشعور بالمحبة سائدا بين أفراده ويذم أرسطو الصداقة التى تقومعلى أساس المنفعة ويرى أنها تسود بين الشيوخ كما يذم الصداقة التى غايتها اغتنام اللذات ويرى أنها تسود بين الشباب وفى كلا الحالين لاتكون صداقة بالمعنى الحقيقى للكلمة بل صداقة مزيفة سرعان ما تذبل وتذوى بزوال أسباب وجودها . وينتهى بعد ذلك الى القول بأن الصداقة الحقة لا توجد الابينالرجال الناضجين المتساوين فى الفضيلة ذلك أنه اذا صح أنها

---

(١) الأخلاق ، الباب الخامس فصل ١٠ ، و « لسبوس » Lesbos هى احدى المدن اليونانية .

(٢) الباب الثامن والتاسع من كتاب الاخلاق النيقوماخية

توجد أيضا بين الكائنات غير العاقلة فما أحوج البشر اليها عندئذ سواء فى سرائهم أو ضرائهم.

تلك هى الفضائل الأخلاقيـــة التى أفاض أرسطو فى الحديث عنها وجعلها أساس سعادة المواطن . لكنه على أى حال مضى يمتدح نوعا آخر من الفضائل هى الفضـــائل العقليـــة dianoétiques وخصص لهـا البـاب السادس السادس من كتابه الأخلاق النيقوماخية . واذا كانت الفضائل الأخلاقية السابق ذكرها تفترض تحديد الوسط العدل الذى يراه العقـــل أو يحدده الحكيم الا أنها كانت تتميز بأنهـا عادة تشترط استخدام الارادة أما هذه الفضـــائل العقلية فهى تتميز بأنها تعتمد على الجـــانب العقلى من النفس الانسانية فحسب ومن أمثلتها التدبير Phronesis prudence ويظهر التـــدبير فى حسن التصرف فى الأمور ومنهـا الفطنـة synesis وهى الحكم الصائب على الأشخاص والأعمـــال ومنها الاتزان Sophrosyné وهى الصفة التى يتميز بها عادة كبار الساسة أمثال بريكليس . وكل هذه الفضائل العقلية تظهـر عادة فى الحياة العملية ولكنها لا تصـــل الى مستوى المعرفة النظرية التى تظهر فى التعقل أو التـــأمل النظـــرى vous-nous الذى يعتمـد عليه العـلم Science والحـــكمة sagesse فمن يتقنـون ادراك المبـــادىء الأولية بالعقل ومن يستمدون منهـا القضـايا البرهانية الصادقة هم الفلاسفة والحكماءالذين لا يتميزون بالذكاء العملى بل بالقـــدرة على الحياة النظرية التـــأملية ومن أمثـلتهم طاليس وانا كساجوراس

نصوص مختارة :

(ا) العدالة التوزيعية تتلخص فى مراعاةالتناسب الحسابى :

يقول : « تستلزم العدالة وجود أربعـة أطراف على الأقل . اذ ينبغى على الأقل وجود شخصين أو شيئين وأن تكون النســـبة التى بين الأشياء هى نفسها النسبة التى بينالأشخاص فاذا لم يكن الأشخاص متساوين فلا ينبغى أن تكون أنصبتهم من الأشياء متساوية ، ويترتب على ذلك أن تنشأ المنازعات والمطالبات متى لم يحصل المتساوون على أنصبة متســاوية أو اذا لم يكونوا متساوين ومع ذلك يحصـلون على أنصبة متساوية ويتضح الأمر بمقدار أكبر لو أننا نظرنا الى امتياز الأشخاص بدلا من النظر فى الأشياء . والكل يوافق على أن القســـمة ينبغى أن تتم بحسب امتياز الأشـخاص ومع ذلك فليس هناك اتفاق كامل حول طبيعة هذا الامتياز لأن أنصار الديمقراطية يرونه فىالحرية وأنصار الأوليجارشـية يرونه تارة فى الثـراء وتارة أخرى يقـــدرونه بحسب المـولد أما الأرستقراطيون فانهم يقدرونه بحسب الفضيلة وعلى ذلك يكون العادل هو بمعنى ما نســبة proportion وهـذه النســبة تقتضى مساواة العـــلاقة القائمـــة بين أربعـة أطراف على الأقل ... وتظل النسبة ثابتة ســواء كانت بين الشخصين أو بين الشيئين .... والتوزيع الذى يراعى هذه النسبة هو العادل أما ما لا يراعى هذه النسبة فهو ظالم ويسمى الرياضيون هذه

النسبة بأنها هندسية . وأحد أنواع العدالة هو العدالة التوزيعية .»

ب ــ فى العدالة القانونية وأنها تتلخص فى مراعاة التناسب الحسابى يقول : « أما النوع الآخر من العدالة فهو العدالة التعويضية de compensation corrective وهو الذى يتعلق بجميع المعاملات بين الأفراد سواء كانت ارادية أم غير ارادية وهذا النوع من العدالة يختلف عن العدالة التوزيعية التى تراعى التناسب فى تقسيم ثروة الدولة على الأفراد فعند توزيع مصادر الثروة الاجتماعية تقسم بحسب أقدار الأفراد ويكون الظلم فى عدم مراعاة هذه النسبة . أما العدالة التعاقدية فتتلخص فى المساواة التى تقوم على أساس مراعاة التناسب الحسابى . فلن نعنى اذا كان المعتدى رجلا نابه الذكر والمعتدى عليه خاملا أو أن يكون العكس لأن القانون هنا لا يعنى الا بطبيعة الجرم بغير أن ينظر الى الفروق بين الأشخاص بل يعاملهم على قدم المساواة فلن يعنيه اذا ما كان الذى ارتكب الجرم هو هذا أو ذاك وانما يحاول القضاء تصحيح الظلم الذى يقتضى أن يكون أحدهم معتديا والآخر معتديا عليه كأن يكون أحدهم قد كال الضربات والآخر قد ضرب أو كأن يعتدى واحد بالقتل والآخر يموت وهنا يتدخل القاضى لاصلاح عدم المساواة الناتجة عن هذا الاعتداء بما يفرضه من عقوبة تساوى بين الأطراف بحيث يجرد أحد الأطراف من المكسب الذى استفاده من اعتدائه ... وعندما يقدر القاضى خسارة المعتدى عليه ومكسب المعتدى فانه يحاول تحقيق الوسط بين الطرف المستفيد بالأكثر والطرف الخاسر أى الناقص فى المكسب وبالتالى تحدد العدالة التعويضية الوسط العادل بين مكسب الواحد وخسارة الآخر والقاضى يحفظ الميزان العادل بين الطرفين . ولنشبه الأمر على النحو التالى فنفرض خطا ينقسم قسمين غير متساويين أكبرهما يربو على النصف بمقدار معين والآخر يقل عنه بنفس هذا المقدار فيتدخل القاضى بأن يأخذ الجزء الذى يربو على النصف من القسم الأكبر ليضيفه الى القسم الأصغر ليعادل النصف وكذلك يصبح كل من الجزئين مساويا للآخر فالمساوى هو المتوسط بين الأكثر والأقل بحسب التناسب الحسابى . ولهذا تطلق فى اليونانية كلمة dikaion على العدل وتطلق لفظة dicha على القسمة الثنائية المتساوية الأطراف أى بتغيير حرف واحد . » (١)

ثالثا : اللذة والسعادة الحقة :

تأتى مناقشة أرسطو لحقيقة اللذة ومكانتها فى الحياة الأخلاقية كنقطة اتصال بين نظريته فى الفضيلة ونظريته فى السعادة ولقد ذكرها فى بعض فصول الباب السابع وعاد اليها مرة أخرى فى مقدمة الباب العاشر والأخير من كتابه فى الأخلاق النيقوماخية .

ويلاحظ أرسطو مبدئيا أننا نطلب اللذة بالطبيعة ونهرب من الألم كما يرى أن اللذة اذا أضيفت الى أعمالنا حببتها الينا واذا اكتست الفضيلة بها حققت لنا السعادة ...

---

(١) كتاب الأخلاق ـ الباب الخامس فصل ٣ و ٤ .

ويذكر أهم الآراء المتداولة بصدد اللذة فيذكر رأى « اودوكس » الكنيدى تلميذ أفلاطون الذى ذهب الى أن اللذة هى الخير الأقصى ذلك لأنها مطلب جميع الكائنات . لكن يضيف أرسطو أن اللذة وان كانت نوعا من أنواع الخير الا أنها ليست الخير الأقصى اذ لابد أن تقترن اللذة بالحكمة والعقل على حد قول أفلاطون (١) . كذلك يمكن الاعتراض على رأى اودوكس بأنه ان قيل ان الألم شر فلابد أن يكون نقيضه وهو اللذة خيرا فيمكن الرد على ذلك بأن نقيض الشر قد يكون شرا بدوره ولا يلزم ضرورة بأنه يكون خيرا أما رأى الذين يرون فى اللذة شرا مطلقا أمثال « اسبوزيبوس » فهؤلاء بدورهم يعارضون منطق الواقع والتجربة ذلك أن اللذة انما هى نوع من أنواع البهاء والبريق الذى يصاحب أفعالنا خاصة عندما نشعر بأننا أتممنا عملا ما ولذلك فاللذة تكون مقترنة دائما بأفعالنا وقيمتها مستمدة من قيمة النشاط الذى تصاحبه. فاللذات التى تصاحب الأفعال الخبيثة هى لذات فاسدة مزيفة أما اللذات المصاحبة لأفعال الفضيلة والحكمة فهى لذات حقيقية وفاضلة على السواء . وكذلك تنتهى النظرة الصحيحة للذة الى معرفة طبيعة السعادة الحقة . وعلى نحو ما انتهى أرسطو فى فلسفته الميتافيزيقية الى أن فكرة الجوهر على العموم تفترض وجود أنواع مختلفة من الجواهر وأسمى هذه الجواهر وأتمها جميعا هو الله فكذلك يذهب فى فلسفته الأخلاقية الى القول بفضيلة أسمى من كل الفضائل الأخرى هى فضيلة التأمل العقلى الخالص Noêsis . وتمتاز هذه الفضيلة السامية عن سائر الفضائل الأخرى بأنها لا تتطلب الارتباط بين النفس والجسم شأن باقى الفضائل ولا يشترط لوجودها أى شروط خارجية كوجود الحياة الاجتماعية أو وجود الغير . فهى فضيلة كافية لذاتها ومن يزاولها يمكنه أن يكتفى فى مزاولته لها بنفسه ولا يحتاج لوجود الغير شأن ممارسة الفضائل الأخرى فالعادل مثلا لا يمكنه ممارسة عدله بغير مجتمع والكريم لا يمكنه الجود الا اذا توفر له ما يجود به ومن يجود عليهم وهكذا فى الفضائل الأخرى .

ولما كانت الميتافيزيقا تبين لنا كذلك أن الله غير محتاج لأى ظروف خارجية لكى يمارس النشاط السامى اللائق به فلا يبقى الا أن نقول أن النشاط الوحيد اللائق بالله هو فى هذا التأمل . ولما كان الله سعيدا كل السعادة فان سعادة من يقدرون على مزاولة هذا النشاط هى سعادة لا تعادلها سعادة أخرى . لذلك يعد أرسطو بلوغ هذه السعادة غاية تتجه اليها الحياة الفاضلة بأسرها والسعادة المستمدة من حياة الفضيلة مقدمة لهذه السعادة الحقة .

ويختتم حديثه عنها بقوله ان الانسان لا يبلغ هذه السعادة ولا تتحقق له هذه الفضيلة بوصفه انسانا بل بما فيه من عنصر الهى لذلك يجدر بنا أن ننصرف عن أى نصيحة تحاول القعود بنا عن بلوغ هذه السعادة بحجة أنها فوق طاقة البشر لأننا بما لنا من قدرة على ممارسة هذه الفضيلة لفترة قصيرة من الوقت وفى أحيان نادرة ندنو من الآلهة وبهذا وحده نستطيع أن نبلغ مستوى الخلود (٢) .

---

(١) أنظر محاورة فيليبوس لأفلاطون .

(٢) الأخلاق ـ الباب العاشر فصل ٧ .

نصوص مختارة :

في التأمل والسعادة الحقة :

يقول : « اذا صح أن السعادة ليست الافى النشاط المطابق للفضيلة فمن الواضح أنها أيضا فى نشاط أفضل أنواع الفضائل أى فى فضيلة ذلك الجزء الأسمى من طبيعتنا . وسواء سمينا هذا الجزء الأسمى من طبيعتنا العقل أو القوة التى لها السيادة والأمر التى تدرك ما هو خير والهى وسواء كانت هى أيضا الهية أو أكثر الأجزاء ألوهية فى الانسان فان نشاط هذه القوة بحسب فضيلتها هو المؤدى الى السعادة المطلقة .. لأن هذا النشاط هو أسمى أنواع النشاط،ولأن ما يدركه العقل هو أسمى الأشياء وأكثرها ثباتا لذلك فنحن أقدر على الاستمرار فى التعقل من الاستمرار فى القيام بأى عمل آخر وفى ظننا أن النشاط المطابق للفضيلة وللحكمة هو أكثر أنواع النشاط مجلبة للذة فاللذة التى تجلبها لنا الحكمة هى لذة نقية ومؤكدة وحياة من يمارسون العلم أفضل من حياة من هم فى طلبه فحسب . من جهة أخرى فان الاكتفاءهو السمة المميزة لحياة التأمل.ومع ذلك فمن الطبيعى أن الحكيم شأنه شأن العادل يحتاج كغيره من الناس الى ما يوفر له ضروريات الحياة ، ولكن مهما توفرت للعادل ضروريات الحياة الا أنه محتاج لمن يقيم فيهم عدله وكذلك الحال فيما يتعلق بالمعتدل والشجاع وكل من يمثل الفضائل الأخلاقية أما الحكيم فحتى لو ترك لنفسه فانه قادر على الاستمرار فى تأمله بل تزداد حكمته بانكبابه على التأمل . وقد يحسن أن يشترك الحكيم مع غيره فى حياة الفكر ولكنه أكثر الناس اكتفاء بنفسه autarkêstatos ويبدو أن حياة التأمل تفضل لذاتها وأنه ليس لها غاية أخرى أبعد منها فى حين أن الحياة العملية تبغى نتائج أخرى غير الأفعال التى نقوم بها .

ولنقل على العموم ان السعادة تستلزم الراحة والفراغ le loisir فنحن نحارب من أجل أن ننعم بالسلام والفضائل العملية تظهر فى الحياة السياسية وفى الحروب ، لكن الراحة لا تتوفر فى هذين النوعين من الحياة ولذلك لاتجد انسانا يرغب فى أن يستمر فى حياةالحرب والقتال الا ان كان ميالا لسفك الدماء وكذلك لايجد من ينغمر فى الحياة السياسية أى فراغ لأن تصريفه لأمور الادارة وبحثه عن السلطان والشرف لايسمحان له بأى نوع من الراحة واذا كانت حياة السياسة وحياة الحروبتتطلبان القيام بأعمال الفضيلة واذا كان لهذه الأعمال سمةالبهاء والأهمية الاأنها ليست مرغوبة لذاتها. أما النشاط العقلى فانه يمتاز بأنه لا يطلب لأى غرض آخر غير ذاته وهو يحمل فى طياته لذته الخاصة التى تزداد كلما ازداد انشغالنا به أضف الى ذلك أنه يمكن أن يتحقق عند الانسان اذا هو اكتفى بذاته وهو كفيل بتحقيق السعادة لمن يستطيع ممارسته على مدى الحياة .

وقد تكون هذه الحياة فوق طاقة الانسان، لأن الانسان عندئذ لايحياها بوصفه بشرا بلبما فيه من جانب الهى مقدس . وبمقدار مايزداد نصيبه من هذا الجانب المقدس ويطغىعلىجانبه المركب بمقدار ماتسمو هذه الفضيلة وتعلو على الفضائل الأخرى .

واذا كان للعقل هذه الصفة القدسية التى يمتازبهاعلىسائر أجزاءالانسان فانالحياةالمطابقة

للعقل سوف تمتاز بهذه القداسة بالنسبة لسائر أفعال الانسان .

وأخيرا لننصرف عن نصيحة أولئك الذين يزعمون أننا بشر وأنه لا يجوز لنا الا أن نفكر الا فيما هو فى طاقة البشر أولئك الذين يصرفوننا عن كل ما يمت للخلود بصفة . ولنقل انه يجدر بنا أن نعمل بقدر طاقتنا على أن نبلغ الخلود وأن نعيش وفقا لذلك الجزء الاسمى من طبيعتنا فهذا الجزء يمتاز عن غيره فى القدرة وفى القيمة وان تضاءلت أبعاده المادية (Toonko) ذلك لأن حياة العقل هى أنسب أنواع الحياة للانسان ولأن جوهر الانسان فى هذا العقل ومثل تلك الحياة هى حياة السعداء حقا » (١)

أميرة حلمى مطر

---

(١) كتاب الأخلاق ـ الباب العاشر فصل ٧ .